الله

الاسم هو الله ، يقول الله عزّ وجل في القرآن الكريم :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد : ١٩] .

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، هذه الكلمة هي كلمة التوحيد ، فالإسلام كله والإيمان كله والإحسان كله ، جُمِعَ في هذه الكلمة ، والمسلمون يرددون هذه الكلمة كثيراً في كل وقت ، وفي كل مناسبة إلى درجة أنهم غفلوا عن معناها ، وحينما نقول : إنّ هذه الكلمة شعار الإسلام ، فمعنى ذلك أن الدين كله أساسه قائم على هذه الكلمات ، ألَم يقل المولى عز وجل :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ الأنبياء : ٢٥] .

« لا إله إلا الله » فحوى رسالات الأنبياء جميعاً ، فالشيء الدقيق هو أنْ تضغط ديناً بكامله ، وأنْ تجمع الشرائع السماوية ، وأنْ تجمع رسالات الأنبياء جميعاً في كلمات معدودة ، وكلمة التوحيد هذه « لا إله إلا الله » نرددها كل يوم عشرات المرات ، بل مئات المرات ، ولو عرفنا حقيقتها لكنا في حال آخر غير هذا الحال .

عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ** » .

أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : « **لا إله إلا الله** » ، ولا إله إلا الله حِصنٌ مَن دخلها أَمِنَ من عذاب الله ، لا إله إلا الله كلمة التوحيد ويجب أن نقف عند هذه الكلمة ، ونستوحي منها دروساً كثيرة .

بادىء ذي بدء نقف عند المعنى اللغوي لهذه الكلمة ؛ لا إله إلا الله ، يقول علماء التوحيد : « **الله عَلَمٌ على الذات الكاملة ، الله سبحانه وتعالى ، والكون ممكن الوجود ، وهو ما سوى الله** » ، فالله عَلَمٌ على الذات الكاملة عَلَم على الخالق ، عَلَم على البارىء ، المصور ، المسير ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، أسماء الله الحُسنى كلها جُمعت في (الله) ، عَلَم على الذات ، قال بعضهم : (الله) اسم الذات الأعظم ، لكن إذا أردت أن تشير إلى الذات الكاملة ، المتصف بصفات الوجود ، وصفات الكمال ، وصفات الوحدانية فقل (الله) : علم على الذات ، جُمعت أسماء الله الحُسنى كلها في كلمة الله ، بعضهم قال : اسم الله الأعظم (الله) ، وبعضهم قال : (الرحمن الرحيم) ، وبعضهم قال : أي اسم لله تأثرت به في أعماقك ، وتتفاعل معه ، فهو اسم الله الأعظم ، على كلٍّ في هذه الكلمة لا إله إلا الله ، أسماء الله الحُسنى كلها مجموعة في (الله) .

وبعدُ فما معنى إله ؟

في المعجم جاء : أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَهَةً وأُلوهَةً وأُلوهِيَةً ، يعني عَبَدَ

عبادة ، فأَلَهَ بمعنى عَبَدَ الإله المعبود ، لكن أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً أيْ : تحَيَّرَ ، أَلِهَ إليه أيْ : لَجَأَ إليه ، هذه هي المعاني المستفادة من معنى أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَهَةً وأُلوهَةً وأُلوهِيَةً ، أي : عَبدَ ، فعَبَدَ ليس معناها أطاع ، بل أَطاعَ وأحبَّ فمن أطاع ولم يحب لم يعبد الله ، فالعبادة هي الحب مع غاية الطاعة .

فأحب وأطاع بمعنى (عَبَدَ) ، مَن المعبود ؟ هو الله ، بعض ما يقوله العلماء حول هذه الكلمة : « **لا معبود بحق إلا الله** » ، من الذي يستحق العبادة ؟ هو الخالق ، إذاً لا خالق **إلا الله** ، من الذي يستحق العبادة ؟ هو الرازق ، هو المُعطي ، هو المانع ، هو الرافع ، هو الخافض ، هو المُعِزّ ، هو المُذِلّ ، هو الفعّال ، لِمَا يُريد ، هو العزيز ، هو الجبار ، هو القهار ، فإذا قُلت : لا إله أي : لا معبود ؛ من هو المعبود ؟ هو الجبّار ، مَن هو المعبود ؟ هو القوي ، من هو المعبود ؟ هو المسيّر ، من هو المعبود ؟ هو الخالق هو البارىء المصور الرازق المانع هو المعطي الرافع والخافض ، فالذي يستحق العبادة هو الرازق ، إذاً (لا إله إلا الله) : أي : لامعبود إلا الله ، لا رازق إلا الله ، فإذا قُلت : لا إله إلا الله ، أيْ : لا مُعطي ولا مانع ولا رافع ولاخافض ولا مُعِزّ ولا مُذِلّ ولا رازق ولا وهّاب ولا مُغْنٍ ولا مُبْدِ ولا مُعيد إلاّ الله ، كُلُّ الأسماء الحُسنى إذا جُمعت هي الله ؛ أيْ هو المعبود الحق .

إذاً : أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَهَةً وأُلوهَةً أي : عَبَد يَعبُد ، والعبادة هي غاية الخضوع مع غاية الحب ، ولن تُحب ولن تُطيع إلا إذا عرفت الله عزّ وجل ، فالعبادة ثلاث مراحل : معرفةٌ وطاعة مع حب وسعادة .

المعنى الثاني : أَلِهَ ونحن بصددها الآن ، أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً أيْ تحَيَّرَ ، الإنسان يتحيّر بمَن ؟ بالصغير أم بالكبير ؟ بالجليل أم بالحقير ؟ بالغني أم بالفقير ؟ فالتحيُّر من معاني العظمة تَحار فيه الألباب تَحارُ فيه العقول تَحارُ فيه النفوس تَحارُ فيه الأفئدة ، إذاً من جهة هو معبود ، فلماذا هو معبود ؟ لأنه خالق ، ولماذا هو معبود ؟ لأنه رازق ، لماذا هو معبود ؟ لأنه فعّال ، لماذا هو معبود ؟ لأنه قوي ، لماذا هو معبود ؟ لأنه مُحيٍ ومُميت ، مُعِزّ ومُذِلّ . .إلخ ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : لماذا هو معبود ؟ عظمته تَحارُ فيها العقول أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً أيْ : تحَيَّرَ .

والمعنى الثالث : أَلِهَ إليه أي : لجأ إليه يعني : لا ملجأ لك أيها الإنسان إلا (الله) ، فمعنى « لا إله إلا الله » لا معبود ولا عظيم ولا ملجأ إلا الله ، لكن هذه الـ(لا) نافية للجنس ، ما الفرق بين الـ(لا) النافية للجنس والـ(لا) النافية نفياً عادياً ؟

قد تقول مثلاً : لا طالبَ في الصف بل طالبة ، فجنس الذكور ليس موجوداً أما إذا قلت : لا طالبٌ في الصف بل طالبان ، في الحالة الثانية نفيت أنت ماذا ؟ نفيت المُفرد ، فـ(لا) التي تنفي المفرد تُسمى (لا) الحجازية ، أما (لا) التي تنفي الجنس تُسمى (لا) النافية للجنس ، فإذا قال لك أحدهم : هل عندك خُبزٌ ؟ فقلت : لا خبزَ عندي ، فالمقصود لا خبز ولا قمح ولا طحين ، ولا أي شيء من أنواع القمح ، لا خبزَ عندي بل لحم ، أما لا خبزٌ عندي فقد نفيت المفرد ، وقد يكون عندك أجناس القمح ، أما الخبز فقد نفيته وحده .

إذاً (لا إلهَ) تنفي أن يكون في الكون إله غير الله عزّ وجل ؛ بعض العلماء قال : المعنى الأول قاله ابن عباس رضي الله عنه « لا إله إلا الله » أيْ : لا نافع ولاضار ولا مُعِزّ ولا مُذِلّ ولا مُعطيَ ولا مانعَ إلا الله ، هذا التفسير لابن عباس رضي الله عنه ، وبعضهم قال : « **لا إله يرجى فضله ، ولا إله يُخاف عدله ، ولا إله يُؤمن جَوْرُه ، ولا إله يُؤكل رزقه ، ولا إله يترك أمره ، ولا إله يُسأل مغفرته ، ولا إله يرتكب نهيه ، ولا إله يحرم فضله ، إلا الله الذي هو رب المؤمنين ، وغفار ذنوب المؤمنين ، وملجأ المؤمنين ، وستار المخطئين ، غاية رجاء الراجين ، ومنتهى مقصد العارفين** » .

أنا أتمنى من الإخوة القرّاء الأكارم أن يتحققوا ويتوقفوا مليّاً عند هذه الكلمة ، فهي كلمة الإسلام الأولى ، هذه كلمة التوحيد ، الدين كله مجموع في هذه الكلمة ، قال بعضهم : (لا إله إلا الله) إشارةُ المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتسديد إلى الملك الحميد .

تعلمون أنَّ نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل التقوى ، أنت إذا وحَّدتَ واتقيتَ ملكت زمام أمرك ، والحقيقة أنك عندما تُوحِّد وتستقيم فلن تشعر أن هناك جِهات أخرى تملك أمرك ، وإنك موزّع بينها جميعاً . فمتى توحِّد وجهتك إلى الله عزّ وجل ؟ ومتى تعبده وحده ؟ متى تُطيعه وحده ؟ متى تُقبل عليه وحده ؟ متى ترجوه وحده ؟ متى تخافه وحده ؟ متى تطمع بعطائِهِ وحده ؟ إذا أيقنت أنه لا إله غيره .

قضية دقيقة جداً ما دام هُناك شعور بوجود جهة في الأرض بإمكانها أن تنفعك ، أو أنَّ جهةً أخرى بالأرض بإمكانها أن تضرك ،

فأنت في هذه الحالة لن تستطيع أن تعبد الله وحده ، لذلك فإن الله عزّ وجل لم يأمُرْكَ أن تعبده إلا بعد أن طمْأنك إلى أنَّ الأمر كله عائد إليه فلا إله إلا الله لك أن تفهمها على النحو التالي : الإله هو المعبود .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[البقرة : ٢١]

إذاً (لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله ، من الذي ينبغي أن يُعبد ؟ هو الرازق ، من الذي ينبغي أن يُعبد ؟ هو المُعطي والمانع ، والرافع والخافض ، والمُعِزّ ، والمُذِلّ ، والقوي ، والقهّار ، والجبّار ، فكُلُّ الأسماء الحُسنى بمجموعها تدل على أن صاحب الأسماء الحُسنى يستحق العبادة فهو المعبود ، هذا هو المعنى الأول .

أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً : تحيَّر ، هو العظيم : الله عزّ وجل لا نهاية لقوته ، مهما عرفت عنه فهو أعظم ، لا نهاية لجبروته ، لجماله ، لرحمته ، لعدالته لحبه لعباده ، أيْ : منتهى النهايات هو الله .

والمعنى الرابع : وقال بعضهم : (لا إله) للرغبة ، إذا رغبت فالله وحده هو الذي يجب أنْ ترغب فيه ، و(لا إله) للرهبة إلا الله ، وإذا خِفت فينبغي ألا تخاف إلا من الله ، فإذا حدّثتْك نفسك أن تخاف فليس في الكون كله جهة ينبغي أن تخاف منها إلا الله ، وإذا حدَّثتْك نفسك أن تُحب فهناك في الكون أشياء جميلة ، وهناك أشخاص ، وهناك نساء ، وهناك أماكن ، وهناك بيوت ، وهناك مركبات إذا حدَّثتْك نفسك أن تُحب شيئاً يجب ألا تُحب إلا الله .

فالمعنى الرابع ، أي : لا إله للرغبة إلا الله ، ولا إله للرهبة إلا الله ، فهو الذي يكشف الكُربة ، والدليل ما قاله علي رضي الله

عنه : « لا يخافنَّ العبد إلا ذنبه ولا يرجُوَنَّ إلا ربه »[١] . فَحَالَة التوحيد مع المؤمن حالة مريحة ، بالعكس حالة التوحيد هي الصحة النفسيّة وخِلاف التوحيد حالة مرضية ، فحينما يشعر شخص أن إنساناً من بني جلدته أمْره بيده وهو لا يُحبه وهو يتمنى تحطيمه ، هذا الشعور وحده شعور مَرَضيّ ، شعور يسحق ، شعور يدمّر ، أنت إذا توهمت أن أمرك بغير يد الله عزّ وجل فهذا الوهم وحده يكفي لِسحق الإنسان ، فيجب إذا أردت أن تُحب ألا تُحب إلا الله ، وإذا راودك خوف فلا تخف إلا من الله ، وإذا أردت أن تعتمد على جهة فلا ينبغي لك أن تعتمد إلا على الله ، وإذا أردت أن تثق بجهة فلا ينبغي لك أن تثق إلا بالله .

كلمة معبود ، تعني لا معبود بحق ، وعلماء السلف الصالح ضغطوا كل هذه المعاني بكلمة معبود ، الذي يستحق العبادة ، هل يستحق العبادة إنسان ؟ إنسان سَيَموت ؛ انسان كان في العَدَم ، ثم حَدث ، ثم سيَنْتهي إلى عدم ، هذا لا يستحق العبادة .

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي : « يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا ؟ » قَالَ أَبِي : سَبْعَةً سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِداً فِي السَّمَاءِ ، قَالَ : « فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ ؟ » قَالَ : الَّذِي فِي السَّمَاءِ ، قَالَ : « يَا حُصَيْنُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ » قَالَ : فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِيَ الْكَلِمَتَيْنِ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من قول عليٍّ رضي الله عنه بلفظ : « لا يرجُ عبد إلا ربه ، ولا يخف إلا ذنبه » ، والبيهقي عن علي بلفظ « لا يخاف العبد إلا ذنبه ولا يرجو إلا ربَّه » .

اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي ، فَقَالَ : « قُلِ اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي ، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي » . [رواه الترمذي] .

لا تحتاج أنت إلى آلهة الأرض ، هذا هو سبب الصحة النفسية ، فالإنسان أمره كله بيد جهة واحدة يسعى إليها ، يُرضيها ، يخافها ، يرجوها ، يُطيع أمرها .

هناك نصوص كثيرة حول هذه الكلمة ، كلمة التوحيد ، وهناك أحاديث كثيرة جداً ، كما أن هناك آثاراً عند السلف الصالح كثيرة جداً ، فكلمة التوحيد : « (لا إله إلا الله) لا يسبقها عمل ، ولا تترك ذنباً » [ابن ماجه من حديث أم هانىء] ، فقبل أن تتحقق من أنه لا إله إلا الله أنت في حياتك آلهة كثيرة ، دعْك مما يجب أن يُقال في العالم الإسلامي ، كُن مع الحقيقة ، هناك شخص مثلاً توحيده ضعيف في حياته ، أشخاص كثيرون لهم تأثير عليه ، فإذا توجّه إليهم وسعى إلى إرضائهم ، وخاف من غضبهم ، وعلّقَ عليهم الآمال فهذا هو الشِّرك ، فإذا كنت ترجو زيداً وتخشى عُبيداً ، وتطمع بما عند فلان ، وتخاف من عِلاّن ، فالعمل الصالح الخالص لن يكون لله عزّ وجل .

لا يسبقها عمل ، قبل أن تؤمن بلا إله إلا الله ، عملك مَشوبٌ بالشِّرك ، ترجو غير الله ، وتخاف غير الله ، وتُعلّق الأمر على غير الله ، وإذا تحققت منها لا تترك ذنباً ، لماذا تعصي الله من أجل أن يرضى عنك زيد ؟ ، فَزَيْد بِيَدِ الله .

ولا أعتقد أن أحداً يخفى عليه ما رويته من قبل من أنَّ يزيد بن عبد الملك أصدر توجيهاً إلى والي البصرة عمر بن هبيرة ، وكان عند هذا الوالي حين وصل التوجيه الحسنُ البصري وهو من كبار التابعين ،

فجاء التوجيه مخالفاً لِما يجب أن يكون ، مخالفاً للحق ، فوقع الوالي في حيرة من أمره! هذا الوالي قال للحسن البصري : ماذا أفعل ؟ أجابَهُ بكلمة واحدة تتلخص بكامل التوحيد ، قال له : « **اعلم أن الله يَمْنَعُك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله** » .

إذاً هو المعبود بحقٍّ ، فأنت حينما ترى إنساناً يعصي الله ليُرضي فلاناً ، ويُقصّر في أعماله الصالحة ليُرضي زيداً ، ويقترف الآثام ليُرضي عبيداً ، هذا توحيده ضعيف جداً ، إذاً في الحياة اليومية أشخاص يراهم آلهة يراهم يستحقون العبادة ، ويستحقون الطاعة ، ويستحقون الخضوع ، ويستحقون الحب فما هو التوحيد ؟ أن تتخلص مما سِوى الله عزّ وجل مُطلقاً ، لا حباً ولا كراهيةً ، ولا خوفاً ولا طمعاً ، ولا أملاً ولا إرضاءً .

أفضل الذِّكر لا إله إلا الله ، فالعدوُّ لما جاءته المِحنة فَزِعَ إلى هذا الذِّكر ، من هو هذا العدوّ ؟ فرعون ، حينما أدركه الغرق فَزِعَ إلى كلمة التوحيد وقال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ .

أحياناً الكافر باعتبار أن بين يديه أوراقاً رابحة كثيرة ومنها أن ماله ينقذه ، مركز قوي يُنْقذه ، أتباعه يعينونه ، فهؤلاء كلهم في نظره آلهة ، فحينما يُقدّر الله له شيئاً كريهاً ، وكل هذه الآلهة التي توهّمها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، عندئذٍ يُسْقَط في يده ويندم ويقول : لا إله إلا الله .

قد يظن الإنسان أن المال كل شيء في مقتبل حياته ، لكنه كلما امتد به العمر يرى أن حجم المال يصغُر إلى أن يعدّهُ شيئاً ، ولكن ليس كل شيء فإذا جاء الموت لا يرى إلا الله ، وأن هذا المال عاريَّة

مستردَّة ، وأنَّ الله ملَّكه إياه ليتقرّب إليه ، أُريد أن أُوسع معنى الألوهية قال تعالى :

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] .

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ، إذا أحببت شيئاً وعصيت الله من أجله فقد عبدته ، والعوام يقولون : تزوج فتاة يعبدها ، ما معنى يعبدها ؟ يُحبُّها ويثق بها وَيَمْحضها كل إخلاصِهِ فيه وكل طاعته ولو أمرتْه بمعصية ، فالعِبادة كما أقول دائماً غاية الحب مع غاية الطاعة ، فإذا مَنَحت تلك الطاعة وذاك الحب لغير الله عزّ وجل فذاك هو الجهل ، ولذلك فحينما قالوا : نهاية العلم التوحيد ، فعندها ترى أن كل الخلق دُمىً يحركها الله عزّ وجل :

﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٥ـ٥٦] .

فقال : إنّ هذا العدو ، عدو الله عزّ وجل حينما أدركه الغرق لجأ إلى الله وقال :

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] .

أمَّا نبيُّ الله سيدنا يونس فحين ابتلعَهُ بطنُ الحوت ، ودخل في ظلمات ثلاث فقال تعالى عنه :

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

لماذا قُبِلَت هذه الكلمة من سيدنا يونس ، ولم تُقبل من فرعون ؟

كلاهما في المحنة قال : لا إله إلا الله ، العلماء قالوا : « **فرعون ما عَرَفَ الله قبل المحنة ، لذلك ما نفعته عند المحنة ، سيدنا يونس عَرَفَ الله قبل المحنة فلما جاءت المحنة نفعته هذه الكلمة** » هذا أول فرق ، فرعون ماذا قال :

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٣ـ٢٤] .

أما يونس فنادى وهو مكظوم :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[الصافات : ١٤٣ـ١٤٤]

إني أدعوك لتلاحظ جميع الناس ، فحينما يقع أحدهم في مأزق ، أو يعاني من مرضٍ عُضال ، أو يتعرض لمشكلةٍ كبيرة ، أو أمامه شبح مصيبة ، ينسى كُلَّ الشركاء ويتجه إلى الله وحده ، فليته عرف هذه الحقيقة وهو في الرخاء! أما حينما تداهمه المصيبة ، وحينما تحدق به مدلهمات الأمور وحينما يُسْقَط في يده فهو لا يرى إلا الله .

حدثني أخ صديق أنّ طائرة تُقِلُّ خبراء من بلاد ترفع شعار « لا إله » أي : الله غير موجود ، مُلحِدون ، فهذه الطائرة مرت بسحابة مكهربة ، وفي أجواء هوائية عاصفة ، وفي طقس قاسٍ فصار بعضهم يقول : يا الله ، والقرآن ذكر ذلك الإنسان الذي إذا ركب البحر ، وهاج البحر وماج ، وأصبحت السفينة العظيمة كأنها ريشة في مهب الرياح ، فعندئذٍ ما رأى إلا الله ، إذاً فواقعياً أنَّ المؤمن يرى أن الله وحده بيده كل شيء ، هذا يؤكده قوله تعالى ، والآية دقيقة الدلالة جداً : ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾[الشورى : ٥٣] .

لنسأل الآن : بِيَدِ مَن كانت الأمور ؟ كانت بيد الله ، ولا تزال بيد الله ، وهي دائماً بيد الله ولكن أهل الدنيا المُعرِضون يرَوْن الأمر بيد غير الله ، أما المؤمن فإنه وهو في الدنيا يرى دائماً أن الأمر بيد الله ، لذلك ماتعلّمت العَبيد أفضل من التوحيد .

هناك شيءٌ آخر : وهو أنَّ سيدنا يونس قال « **لا إله إلا أنت سبحانك** » بكلمة أنت يخاطبه ، أما فرعون فماذا قال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، سيدنا يونس قال : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ وكأنه يرى الله معه ، أما فرعون فسمع أنه يوجد إله لموسى بيده كل شيء ، فلما شرع في الغرق شعَر أن إله موسى هو الذي أغرقه فقال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، فذِكرُ ضمير الغائب دليل على أنه غير مُتحقق ، لذلك إعرفْني في الرخاء أعرفْك في الشِدّة ، قُبلتْ (لا إله إلا الله) من سيدنا يونس لأنه كان من المُسبحين ، ولم تُقبل من فرعون لأنه لم يكن من المُسبحين .

حينما تقع في محنة مهما كان مستوى إيمانك ، ومهما كان نوع عقيدتك ، ومهما كان مستوى توحيدك تقول : يا الله! لكن إذا كان إيمانك قبل المحنة عظيماً تقول : يا الله لا إله إلا أنت ، لك عنده رصيد ، لك عنده سابقة عمل صالح ، لك عنده معرفة برحمته ، لك عنده معرفة بعَفوه بقُدرَته بِحُبِّه ، قال العلماء : فرعون حينما ذكر هذه الكلمة ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، ما قالها تعبداً ، بل قالها من أجل خلاصِه ، شتَّان بين من يضطر إلى الإيمان بالله ومن يؤمن بالله طواعية .

إن كل إنسان يعلم أن العالم كان مقسوماً إلى شرق وغرب ، وإلى

أُمم تقدّس الفرد ، وإلى أُمم تقدّس المجموع ، كِلا الفريقين تطرّفا وعادا إلى الوسط ، والإسلام وسَطي ، لم يعودا إلى الإسلام إيماناً به ولا اعتقاداً بأنه منهج الله عزّ وجل ، ولكن طبيعة الظروف التي رافقت هذا التطرف ألجأتْهم إلى الوسَطيّة ، فالذين آمنوا بالفرد إيماناً مطلقاً على حِساب المجموع اضطروا إلى أنْ يعودوا إلى حقوق المجموع ، والذين آمنوا بالمجموع على حِساب الفرد اضطروا إلى أن يرعوا حقوق الفرد ، إذاً عادوا إلى الوسط هذا معنى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ، ففِرعون حينما قال : لا إله إلا الله قبل أن يغرق قالها ليتخلّص من الغرق ، هذا يُفسّر لنا أن بني إسرائيل حينما خرجوا من البحر رَأَوْا قوماً يعكُفون على أصنام لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ؟ ألم تروا أن البحر أصبح طريقاً يبَساً قال العلماء : إنهم آمنوا بموسى ليتخلصوا من فرعون ، إيمانهم مشوب بمصلحة لذلك أرقى أنواع الإيمان أن تؤمن بأن الله عزّ وجل هو الخالق ويستحق العبادة .

قال بعضهم : إن كل الطاعات يرفعها مَلَكٌ إلى رب العِزة إلا كلمة لا إله إلا الله فتصعد وحدها ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

هناك نقطة دقيقة الدلالة جداً « من ازداد علماً ، ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بعداً » كأنّ هناك خطَ العلم وخط الهدى خط العلم أن تقرأ كتاباً وتفهمه وتستوعبه وتحفظه ، أن تستمع إلى محاضرة ، وأن تقف عند دقائقها وخطوطها الرئيسة ، والأدلة التي قيلت حول أفكارها ، هذا هو العِلم : أن تقتبس معلومات ، حقائق ، أفكاراً ، تصورات ، قناعات ، فما هو الهدى إذاً ؟ من ازداد علماً ولم يزدد هدىً ، خط الهُدى مُقصّر عن خط العِلم كأن الهُدى أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى : لا إله إلا الله ، لا إله إلا هو ، أنْ توحده وتعبده ، يمكن أن أقول : الدين كله أن توحِّد الله وأن تعبده . في القرآن وردت قصص أنبياء كثيرين ، وكلهم يقول لقومه أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

هذه الآية وردت مكررةً عشر مرات أو أقل : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ ، فصار ديننا أن تؤمن أنه لا إله إلا الله وأن تعبده ، نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل طاعة الله عز وجل .

يقال إن العبد إذا قال : لا إله إلا الله أعطاه من الثواب ما كان مقسوماً لكل كافر وكافرة من الجنة لو أنهما لم يكفرا ، والسبب أنه عندما قال هذه الكلمة فكأنه قد رد على كل كافر وكافرة فلا جرم أن يستحق الثواب ، ماذا أمرنا الله عزّ وجل بالقرآن ؟

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد : ١٩] .

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ والعِلم يقتضي البحث والدرس ، واليقين والتدقيق والتمحيص ، واستحضار الأدلة وانتهاء بقناعة ثابتة ، أما الذي يبقى علمه في ترددٍ وفي شك ، فهذا ليس علماً :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

بعضهم قال في تفسير :

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾ [الشورى : ١ـ٢] .

الحاء حلمه وحكمه وحجته ، والميم ملكه ومجده ، والعَين عظمته وعلوه وعزته وعلمه وعدله ، والسين سناؤه وسره ، والقاف قهره وقدرته ، كأن الله تبارك وتعالى يقول : بحلمي وحكمتي وحجتي ، ومجدي وملكي ، وعظمتي وعدلي وعلمي ، وعزتي وعلوي ، وسري وسنائي ، وقدرتي وقهري ، لا أعذب في النار من قال : لا إله إلا الله ، لماذا لا يعذب ؟ لأنه عرف أن الأمر كله بيد الله عزّ وجل فاستقام على أمره ،خلاصة هذا الدين أن عرف أن الأمر كله راجع إليه .

بالمناسبة أذكر للقراء الكرام بعض آيات التوحيد فهناك في القرآن آيات في التوحيد رائعة في الدلالة والبيان فمنها قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

وقوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ هذه الآية دليلس على فكرة دقيقة جداً ؛ أنه لا يوجد في الكون شرٌ مُطلق ، ومعنى الشر المُطلق الشر المُراد لذاته .

أيضاً :

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٦] .

وقوله تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

وقوله تعالى :

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢] أيُّ شيءٍ خَلقَه أمره عائد إليه .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [العنكبوت : ٢٢] .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وقوله تعالى :

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ٢٢] .

وقوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٤١] .

وقوله تعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

وقوله تعالى :

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : ٦٣] .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٨٤] .

وعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ** » [موطأ مالك] .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : « يَا

غُـلامُ إنِّـي أُعَلِّمُـكَ كَلِمَـاتٍ : احْفَـظِ اللهَ يَحْفَظْـكَ احْفَـظِ اللهَ تَجِـدْهُ تُجَاهَكَ ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » [رواه الترمذي] .

فإذا قام الإنسان بجمع الآيات التي في التوحيد وحفظها ، فهذا كنز قرآني كبير يبثُّ في المرء الاطمئنان ، ويدرأ عنه أسباب الخوف دائماً فلا يشعر أن جهة في الأرض يمكن أن تلحق به الأذى ، وإذا شعر أن الله وحده بيده كل شيء ، وهو رحيم غني ، ودود ، قدير عليم ، فهذا الشعور مُسعد ومُطمئن .

من فوائد هذه الكلمة أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : إذا أقعد المؤمن في قبره أتي ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ . [البخاري] عن البراء .

ـ إن الله تعالى قد حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله . [متفق عليه] عن عتبان بن مالك .

ـ ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر . [الترمذي] عن أبي هريرة .

إذاً فالشيء المخيف جداً وهو القبر ، الشيء المخيف حقاً الوحشة والغربة في القبر ، ألم يقل المولى عز وجل :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] .

من ستة آلاف سنة : يعرضون عليها غدواً وعشياً ، أما أهل (لا إله إلا الله) فلا وحشة في قبورهم ، والقبر المُخيف يغدو روضة من رياض الجنة ، لماذا ؟ لأنهم عرفوا الله فاستقاموا على أمره ، ووحّدوه فاستقاموا على أمره .

كثيراً ما كنت أضرب المثل التالي : دخلت إلى دائرة حكومية فيها مئة موظف ومعك معاملة ، لن يستطيع أحد أن يكتب لك : موافق ، وتأخذ ثمار هذه المعاملة إلا المدير العام ، فهل يمكن أن تتجه إلى غيره ؟ كأنْ ترجو آذِناً أو أن ترجو موظفاً بسيطاً ؟ مادامت صلاحية التوقيع للمدير فقط فأنت تتجه إليه وحده ، وما أكثر ما ذكرت أن الله قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

ومن الممكن أن يكون لك مبلغٌ كبيرٌ في مدينة ، وأن تركب القطار الذي يوصلك للمدينة ، ويمكن أن ترتكب ألف غلطة في القطار ، لكن القطار في طريقه إلى المدينة ، وسوف يصل في الوقت المحدد ، وسوف تقبض هذا المبلغ ، قد تركب في الدرجة السادسة ، وتكون ابتعت بطاقة من الدرجة الأولى ، قد تختار عربة فيها شبان أخلاقهم شرسة ، قد تركب في جهة مخالفة لجهة سير القطار ، هذا ممكن! قد تُحِس بالجوع الشديد ولا تدري أنه في بعض القاطرات مطعم ، هذه كلها غلطات ، ولكن القطار في طريقه للمدينة ، وسوف يصل في الوقت المناسب ، وسوف تقبض هذا المبلغ .

إذاً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ

بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ، لكن هناك غلطة لا تُغتفر كأن تتجه إلى قطار خط سيره باتجاه معاكس ، ولا يوصلك إلى هذه المدينة المطلوبة ، أو قطار متوقف لا علاقة له بالحركة أبداً ، هُنا المشكلة فالشِّركُ بالله خطير ، فلماذا خطير ؟ لأنك تتجه إلى ما سِوى الله عزّ وجل ، وما سِوى الله لن يغني عنك شيئاً ، فلماذا الإيمان إذاً عظيم ؟ لأنك تتجه إلى من بيده كل شيء .

إذاً : إذا أردتم أعزائي القراء الكرام التفصيل ففصلوا ، وإذا أردتم الإيجاز فأوجزوا الإيجاز : « **لا معبود بحق إلا الله** » ، لا يستحق أحد أن تعبده إلا الله ولا إله إلا الله ، نهايةُ العلم ، وطاعتُه نهايةُ العمل :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ يُمْسِي : اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ ، وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلاَئِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ ، أَعْتَقَ اللهُ رُبُعَهُ مِنَ النَّارِ ، فَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَعْتَقَ اللهُ نِصْفَهُ ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلاثاً أَعْتَقَ اللهُ ثَلاثَةَ أَرْبَاعِهِ ، فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا أَعْتَقَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ** » [رواه أبو داود] .

ينقذه من النار ، في الحقيقة بالعصور الأخيرة صرت تسمع كلاماً ليس له معنى ، وصارت هناك شهادات مزوّرة ، أما في الأصل حينما تشهد أنه لا إله إلا الله فمعنى هذا أنك تراه رؤية حق ، وتؤمن به إيمان صدق ، وعندئذٍ تُطبّق أمر الله عزّ وجل ، وإذا كان آخر الزمان لم يكن لشيء من طاعة الناس فضل كفضل لا إله إلا الله ، لأن صلاتهم وصيامهم يشوبها أنواع من الرياء والسمعة ولا إخلاص في شيء منها ، أما كلمة « لا إله إلا الله » فهي ذِكرُ الله ، قال ﷺ : « أفضل الذكر لا إله

إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » . والمؤمن لا يذكرها إلا من صميم قلبه ، هذه من فوائد لا إله إلا الله ، والحقيقة أن الإنسان كي ينال شهادة علمية فلابُدَّ أن يبذل جهداً ملموساً ولذلك ، فلكي يتحقق من هذه الكلمة لابُدَّ من بذل جهد وعناء ، فإنسان دون جهد ودون تضحية بجزء من وقته الثمين ودون متابعة وتأمل وبحث فلن يصل إلى الإيمان بهذه الكلمة ، وإن لم يؤمن بها حقاً فعمله مشوب بالشِّرك :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

متى يعصي الانسانُ الله عز وجل ؟ إذا رأيت شيئاً دون رضاه هو أثمن من رضاه ، فمثلاً مَن يقول : (الله أكبر) ، ويعصي ربه كأن أطاع زوجته وعصى ربه ، فرؤيته القلبية أنّ رضاها أثمن من رضا الله عزّ وجل ، حينما تُؤْثِر شيئاً مما سوى الله على طاعة الله فأنت ترى هذا الشيء أكبر من الله لأنك جعلت إرضاء الله في الدرجة الثانية ، وإرضاء هذا الشخص عندك أحق وأولى ، فكلما تحقق الإنسان من كلمة لا إله إلا الله انضبط عمله واستقامت رؤيته وصحت .

كلمةُ التوحيد هذه هي شِعار الإسلام ، وهذه الكلمة التي يقولها الإنسان إذا دخل في الإسلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فيها التوحيد ، والإيمان بالرسالة ، ثم الطاعة ، والإيمان بأنه « لا إله إلا الله » ، والإيمان برسالة النبي ﷺ ، ثم عبادة الله من خلال طاعة الله ورسوله ، ثم يستقيم على ذلك ما عاش ، فهذا هو الدين .

بقيت لدينا في البحث نقطة ذات بعد عملي تتلخص فيما يلي :

إذا رأيت المُستقيم قد أكرمه الله ، ورأيت المُرابي محَقَه الله ، ورأيت المُنحرف المُعتدي دمَّره الله ، وإذا رأيت أن هناك أفعالاً مؤداها العدالة فهذا شيء يمكن أن يُرسّخ إيمانك(بلا إله إلا الله) فإيماننا يزداد بهذه الكلمة عن طريق التفكُّر في الكون أولاً ، وعن طريق تدبُّر آيات الله ثانياً ، وعن طريق النظر في أفعال الله ثالثاً .

إلا أن التحفُّظ في آخر هذا البحث هو : أن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا دار عمل ، وجعل الآخرة دار جزاء ، أما إذا جارى المسيء في الدنيا فهذا جزاء ردعي لبقية المسيئين ، وإذا أكرم المُحسن فهذا إكرام تشجيعي لبقية المُحسنين ، لكن الحساب الكامل نجده في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

* * *